## المحاضرة ٥

## -الفن عند رواد علم الإجتماع-

**تمهيد:** تعتبر ظاهرة الفن من الظواهر الإجتماعية التي عرفتها المجتمعات منذ القدم،حيث كان في كل مجتمع إنساني سواء كان بسيطا أو معقدا،ما يمكن وصفه بالفنان الذي بلغ درجة من الإتقان غلى حد الإبداعنفي تأدية عمل ما بتميز من خلاله.

وقد حظيت هذه الظاهرة بإهتمام إجتماعي وعلمي بالغ الأهمية من منطلق أنها تعبر عن مدى تقدم ورقي الفكر الغنساني وتطوره حيث أن العقل البشري بمجرد تمكنه من تحقيق الاحتياجات الضرورية سعى غلى ابتداع اساليب وأنماط ثقافية تمكنه من تلبية الحاجيات المعنوية وكنتيجة لذلك اهتمت العلوم الإنسانية والإجتماعية بتحليل الظاهرة الفنية ومدى تاثيرها على الأفراد والجماعات والمجتمعات.

وعليه سوف نتبع بدايات التناول السوسيولوجي لظاهرة الفن من خلال رواده ومدارسه.

**التناول السوسيولوجي لظاهرة الفن:** إن الحديث عن ظاهرة الفن من منظرو سوسيولوجي يستوجب التطرق غلى أعمال الرواد لمعرفة الغرهاصات الأولى لهذه الظاهرة وكيف كانت نظرتهم لها.

وفيما يأتي عرض لأهم أفكارهم فضلا عن تتبع الأعمال التي أعقبتهم التي تبلورت في ظلها الاسس المعرفية والمنهجية للبحوث السوسيولوجية.

**إسهامات الرواد:** على الرغم من إهتمامات رواد علم الإجتماع كانت منصبة على تحديد موضوع العلم،مناهجه والإشتغال على وضع نريات من شأنها تفسير ظواهر إجتماعية ضمن إطار زماني ومكاني محددا إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور بعض الإرهاصات التي شكلت ما يسمى بدايات التناول السوسيولوجي لظاهرة الفن ومن أبرز رواد علم إجتماع الفن ما يلي:

١- **إبن خلدون ١٣٣٢-١٤٠٦:** تناول إبن خلدون الفن من منظور الجمال والتناسب حيث بدأ بتحليل ظاهرة الذوق بقوله لا إن الملائم من الأطعمة ما ناسبت كيفية حدسه الذوق في مزاحها،وكذا الملام من الملموسات،وفي الروائح ماناسب مزاج الروح،لأنه المدرك وإليه تؤديه الخاصة.

ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة و أشد ملائمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي.[١]

لم يتطرق ابن خلدون لظاهرة الفن والجمال المرئي والمسموع،حيث يقول:وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها،فهو انسب عند النفس واشد ملائمة لها،وإذا كان المرئي متناسبا في اشكاله وتخطيطه التي له يحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من الجمال المناسبة والوضع،وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك،كان ذلك حينئذ مناسبا للنفس المدركة فتلتذ بإدراك ملائمتها،ولهذا تجد العاشقين المستهزين في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب،وفي هذا سر تفهمه إن كنت من أهله وهو إتحاد المبدأ وإن كل ما سواك غذا نظرته وأمتله رأيت بينك وبينه إتحادا في البداية،يشهد لك به إتحاد ما في الكون.

أما فيما يخص تذوق الغنسان لظاهرة الفن فنجد ابن خلدون،يقول ولما كان أنسب الأشياء إلي الإنسان واقربها إلي ان يدرك الكمال في تناسب موضوعتها هو شكله الإنساني كان إدراكه

---

[١] عبد الرحمان ابن خلدون:مقدمة ابن خلدون:المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،لبنان ٢٠٠٧ ص ٤٣-٥٤.

للجمال والحسن واصواته من المدراك التي هي اقرب غلى فطرته،فيهلج كل غنسان بالحسن من المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة.

وعليه من أهم ما يمكن تسجيله حول أعمال ابن خلدون هو أنه لم يركز إهتمامه فقط على إشكالية نظام وانتظام المجتمعات على خلاف الرواد الآخرون،وهو ما جعل تفكيره يتسم بالموسوعية،حيث تناول بالبحث والتحليل مختلف الابعاد والجوانب السياسية الاجتماعيةنالثقافية الفنية...إلخ التي تشكل مجتمعه المجتمع كما اتسم تحليله لظاهرة الفن بالدقة والرزانة فضلا عن أنه كان مؤسسا تأسيسيا عقلانيا ومنطقيا.[1]

كما يرى ابن خلدون الابداع الفني صفة مكتسبة و ليست موروثة عند الفنان،إذ قال في هذا الخصوص : والملكة صفة راسخة تحصل عند استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته على الأصل،تكون الملكة ونقل المعاينة او حب و الم من نقل الخير والعلم.

ثم وضع ابن خلدون شروطا تهيئ للفنان وضعا نفسيا و جسديا تؤهله لتقديم ابداعه الفني وهي كالآتي:

- قتاعته بموضوع عمله الفني.
- تعلقه النفسي بموضوع عمله الفني.
- أن تكون قريحته تنشطه بلذة سارة.
- بعد نهوضه من نوم مريح.
- فراغ معدته من الطعام.
- جمال مكان عمله.
- الخلوة.

إن سياق الحيدث عن فطرة ابن خلدون للفن يلزمنا أن لا نغفل بهذا الصدد تميزه بين نوعين رئيسيين من الفنون الأولى سماهما بالفنون الكمالية والثانية بالفنون الضروروية.

كما يمكننا أن نشير إلى الوظائف الإجتماعية للفن كما حددها وهي:

١- **<u>توحيد الوقت بصورة نافعة:</u>** بملئ أوقات الفراغ على نحو يدخل السرور والمتعة إلى القلب وفي ذلك يقول في أثناء حديثه عن صناعة الغناء،تحدث هذه الصناعة لأنه لا يستخدمها

[1] المرجع نفسه ص ١٢٠.

إلا من فراغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها إلى الفارغون عن سائر أحوالهم تفننا في مذاهب الملذوذات.

٢- **زيادة الترف والمتعة:** فالمرء لا يكتفي بالبحث عن المتعة بل أنه يطلب من الزيادة دائما ويتفنن في طلبهما وزيادتها على أن ذلك مرتبط بتطور العمران وتوفر الرخاء إلى حد ما لن الاغراق في البداوة يقصي الناس من طلب الفن ويحجبهم عنه لأنهم في شغل عنه فيما هو أهم وهو طلب الحاجات الضرورية،وإذ زخر بحر العمران وطلبت في الكمالات كان في حملتها التألق في الصنائع وإستعادتها مما تدعوا إليه عوائد الترف وأحواله.

٣- **اللهو واللعب:** إذ قال ابن خلدون في هذا الصدد: وامنعو في اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص في الملبنى والقضايا والاشعار التي يترنم بها عليه وجعل صنفا وحده وإتخذت آلات أخرى للرقص تسمى الكرخ وهي تماثيل مسرحية من الخشب معلقة باطراف أقبية يبلسها النسوة ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون وأمثال ذلك في اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام العيد ومجالس الفراغ واللهو.

٤- **إكساء العقل وإغناء التجربة:** غذ قال: إن للنفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة وإن خروجها من القوة إلى الفعل إنما يتحدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولا ثم روحانية ويستكمل حينئذ وجوبها فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا فريدا.[١]

٢- **كارل ماركس ١٨١٨-١٨٨٣:** يؤكد ماركس على دور البيئة وخاصة الاجتماعية والاقتصادية في تحديد الخصائص الأساسية في الفن،فالتغيرات في البيئة كما هو شان الثروة التي تعيد توزيع الثروة والسلطة فتجمع إلى تبديل أشكال التعبير الثقافس جميعها.[٢]

إن طراز الفن ونوعيته في أي زمان لا يرجعان إلى أي إلهام خارق للطبيعة أو سمو عنصر فطري بل أن الأحوال الإجتماعية تستطيع أن تهيء للفن موضوعاته واتجاهاته العامة غلا ان ثمة دوما مجال فسيحا للتنوع الفردي وأكد"ماركس" على أن الفن الدايالكتكي البحث والدعائي الصارخ هو فن سقيم غير فعال على حين أن الفن يجب أن ينطوي على حيوية وخيال وشكل ومهارة وغعجاب بكثير من الفنانين العهود الماضية الذين خدموا او اذعنوا لنظام اجتماعي

---

[١] عبد الرحمان ابن خلدونك مقدمة ابن خلدون ج-٦ ص ٣٣٤.

[٢] نيقولاتيما شيف:نظرية علم الإجتماع بطبيعتها وتطورها،ترجمة محمود عودة وآخرون،دار المعرفة الجامعية،مصر ١٩٩٠ ص ٣٤٤.

ظالم لانهم وقفوا في التعبير عن إيدولوجية العصر أو لأنهم عبروا عن المثل العليا للغنسانية الصالحة لكل أوان ومكان.

ويعتبر الماركسيون الحديثون أن الفن غلى جانب الدين والتعليم وسيلة من أقوى الوسائل للإلهام كل من الجماهير والصفوة المختارة المبادئ والنظريات وللتاثير على عقولهم وعواطفهم حتى يتقبلوا ويقروا نظاما إجتماعيا بعينه أو يتعودوا عليه في وقت الثورة والماركسية ابعد ما تكون معاملة الفن في شيء من التلطف والمجاملة كما تفعل الرأسمالية غالبا على أنه مجرد تسلية أو زخرفة سطحية وهي لا تعتبر الفنان في ظل النظام الشيوعي شخصا شاذا أو مهرجا.

كما يمكن الإشارة أيضا أنه لم يعثر في فكره على سوسيولوجيا الفن بغستثناء ما تضمنه كتابه مساهمة نقدية في الإقتصاد السياسي عام ١٨٥٧ والذي يتناول المسائل الجمالية من خلال ملاحظة السحر الأبدي الذي مازال الفن الإغريقي يتمتع به.

يبد أن الفنان لا يسمح له أن يكون مطلق الحرية في التعبير عن نفسه بصفة فردية بل انه إلزام عليه في الدولة الشيوعية أن يعبر عن أحاسيس إيجابية تدعم المثل العليا للطبقة العاملة والمجتمع الجديد اللاطبقي الذي يجب أن يثقف كما ينبغي عليه أن يخضع النظام الحزب والحكومة والعمل.[١]

٣- **إيميل دوكايم ١٨٥٨-١٩١٧:**

قال ان الفن ظاهرة اجتماعية وانه نتاج نسبي يخضع لظروف الزمان والمكان وهو عمل له اصول خاصة به،وله مدارسه ولا يبني على مخاطر العقيدة الفردية وهو اجتماعي أيضا من ناحية أنه يتطلب جمهورا يعجب به ويقدره وعلى هذا فالفنان في نظر دوركايم لا يعبر عن (الأنا) بل عن (النحن) أي عن المجتمع باسره ولا يتم ذلك إلا عن طريق التأمل الشعوري بل عن طريق الغثمار اللاشعوري وهو ما يشبه الحمل الفني نتيجة الغخصاب الذي يتم عن طريق المجتمع ولهذا فقد يتوهم الفنانون أن الحمل الفني يصدر من الإلهام أو الوحي ماداموا لا يملكون بايديهمخيوط التاثير الإجتماعي التي تكون في الواقع بعيدة الغور متشابكة تماما ومعقدة ومتداخلة وعلى الرغم من أن المجتمع هو مصدر الاعمال الفنية إلا أن الاصالة الفنية عند الإجتماعيين هي أن يدخل الفنان التراث الفني للمجتمع تعديلات وتطويرات أو تاليفات لم تكن مدركة من قبل ولكنها مع ذلك موجودة في المجتمع ومشتقة من كيانه،وذهب –دركايم-للقول أن الذين كنظام غجتماعي هو الاصل في نشأة الفنون جميعا.

---

[١] ف-ح،رايت:مبادئ علم الاجتماع،ترجمة محمد شينا،دار الحداثة للطباعة والشنر والتوزيع،مصر ١٩٩٦ ص ٢٨-٣٤.

فالدين عامل هام في تشكيل حياة البدائيين حيث أن رجال الدين والسحرة عند البدائيين هم الذين يسيطرون على الحياة العامة ويتصدرون حفلات الأعياد والمراسيم الدينية والزواج والصلح والسلام والحرب ويبدو العنصر الفني ظاهرا في مثل هذه الإجتماعات فنرى الرقص البدائي ونسمع الموسيقى البدائية أيضا.[١]

٤- **مورج بليخانون:**

أسس المقاربة الماركسية لفن فقد وضعها الروسي "جورج بليخانون" حين جعله عنصرا في "البنية القوقية" تحدده حالة "الدينية التحتية" الغقتصادية والمادية في المجتمع.

ثم قدم الهنغاري"جورج لوكاش" نظرة أكثر مرونة وأقل بلية ترى أن "نمط العيش" في عصر ما هو الذي يحدد العلاقة بين الظروف الإقتصادية والإنتاج الفني.[٢]

٥- **أرنولد هاوزر:**

قدم في مؤلفاته المختلفة تفسيرا لتاريخ الفن باكمله انطلاقا من المادية التاريخة فه يرى أن الأعمال الفنية انعكاسا للظروف الإقتصادية والإجتماعية على سبيل المثالكالتصنع في الأدب والفن تعبير عن الأزمة الدينية والسياسية والثقافية في عصر النهضة.[٣]

لا شك أن هاورز يمثل النمط الكاريكاتوري للتحليل الماركسي حيث أنه لا ينكر اليوم في تاريخ الفن إلا بوصفه مثالا لعلاقة الباحث الأيدولوجية لا العلمية موضوع بحثه تعرضت أعمال هاورز للنقد من جوانب مختلفة،طريقته الجامدة في معالجة العصور (خلافا لفزيدريك انتال الذي كان شديد الإنتباه لتفاوتها واختلافها) وأولوية المبدأ الذي يوليه للاعمال الفنية بوصفها أعمالا معزولة عن سياق انتاجها ومقطوعة الصلة بالظروف المحيطة بانتاجها وتلقينها بالغضافة إلى استخدامه للتصنيفات الجمالية الجاهزة بانتاجها وتلقينها بالغضافة إلى استخدامه للتصنيفات الجمالية الجاهزة سلفا ك"التصنع" والمبالغة في الزخرفة لأو الباروك إلى جعل الفن معطى عابرا للعصور في التاريخ.

٦- **بيار بورديو:**

يختصر بورديو ذلك بقوله: موضوع العمل الفني هو إذا "هايثوس" متصل بموقع اي داخل حقل وتفعل المحددات الغجتماعية فعلها الذي تظهر آثاره في العمل الفني من جهة أولى من

---

[1] Yean pierre durand, rpbert weil :sociologe contenporaine,edition vigot france2edition 1997 p 14.

[٢] نتالي إينيك:سوسيولوجيا الفن،ترجمة حسين جواد فبيسي،المنظمة العربية للنشر،ط١،سنة ٢٠٠١ بيروت،لبنان ص ٤٠٢.

[٣] المرجع نفسه ص ٤١٢.

خلال"هايثوس" المتتبع. وهي بذلك تحيلنا إلى الظروف الغجتماعية لغنتاجه بوصفه فردا غجتماعيا (الأسرة ...إلخ) وبوصفه منتجا( المدرسة العلاقات المنهية...إلخ) .

كما تظهر منم جهة ثانية من خلال الطلبات والقيود الإجتماعية التي تنطوي عليها الوضعية التي تتخذها في مثل انتاج ما(مستقل إلى هذا الحد وذاك) وما نسميه ( إبداعا) هو التقاء بين هايثوس مكون إجتماعيا وموقع أو "موقف" كان قد شكل أو بات ممكنا داخل تقسيم عمل الإناج الثقافي.[1]

[1] بوردبوبير:مسال في علم الإجتماع،ترجمة هناء صبحي هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة الإمارات العربية المتحدة ط ٠١ ص ٢٠١٢ ص٢٦٢.

**خلاصة:**

إن العامل الأساسي الذي جعل رواد علم الإجتماع لا يهتمون كثيرا بظاهرة الفن داخل المجتمع هو إنشغالهم بوضع الأسس النظرية والمنهجية للعلم العمران البشري وعلم الإجتماع،علم المجتمع للبلوغ مستوى الدراسة العلمية لظواهره وعوارضه وهو ماجعل ظاهرة الفن تبقى بكرا إلى حين ظهور مدارس علم إجتماع الفن.